

٧. الشواهد الشعرية وغريب القرآن (*)

تهديد:

يقسم نقاد الشعر العربي الشعراء إلى طبقات. ومنزلة الشعر العربي القديم كانت سبباً قوياً لهذا التقسيم.

والحقيقة أن الخط الفاصل بين القديم والحديث خط دقيق جداً، فكل شاعر يعيش في زمنه هو حديث بالنسبة له، ولكنه قديم بالنسبة لمن جاء بعده. يقول ابن رشيق: «كل قديم من الشعراء فهو محدث في زمانه بالإضافة إلى من كان قبله».

ولمنزلة الشعر القديم يروي الأصمعي: أنه جلس إلى أبي عمرو بن العلاء عشر حجج فمأسمعه يحتج بيت إسلامي.

ويفسر ابن رشيق هذه المنزلة فيقول: «وليس ذلك لشيء إلا لحاجتهم في الشعر إلى الشاهد، وقلة ثقتهم بما يأتي به المولود».

على أن نظرة ابن قتيبة بالنسبة لمنزلة الشعر القديم تختلف كل الاختلاف عن نظرة أبي عمرو وأصحابه، ذلك أن ابن قتيبة يرى أن الشعر هبة سماوية لا ينفرد بها جيل، أو يستأثر بها عصر، أو يسيطر عليها زمن فيقول: «لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص بها قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثاً في عصره».

على أية حال فالذي أود أن أذكره هنا أن النقاد قسموا الشعراء بالنسبة إلى الزمن إلى أربع طبقات:

جاهلي قديم، ومخضرم: وهو الذي أدرك الجاهلية والإسلام. وإسلامي. ومحدث. ثم صار المحدثون طبقات: أولى، وثانية على التدرج هكذا في الهبوط إلى وقتنا هذا.

ويعقد البغدادي في خزانة الأدب فصلاً عن الكلام الذي يستشهد به في اللغة والنحو

(*) نشر في مجلة الوعي الإسلامي - فبراير ١٩٧٧.

والصرف. وبعد أن وافق النقاد فى تقسيم الشعراء إلى الطبقات الأربع السابقة ذكر أن الطبقتين الأوليين يستشهد بشعرهما إجماعاً، وأما الثالثة فالصحيح صحة الاستشهاد بكلامها،.... وأما الرابعة فالصحيح أنه لا يستشهد بكلامها مطلقاً.

وهناك وجهة نظر أخرى حول الاستشهاد بشعر الطبقة الرابعة فقد رأى بعض العلماء أن توافر الثقة بالشاعر يضمن النفس بالاحتجاج بشعره حتى ولو تأخر زمنه، وعلى رأس هؤلاء القائلين بهذا رأى الإمام الزمخشري والإمام الرضى حيث استشهد بشعر أبى تمام فى عدة مواضع فى شرح الرضى على الكافية. واستشهد الزمخشري أيضاً فى تفسير أوائل البقرة من (الكشاف) بيت من شعره وقال: «وهو وأن كان محدثاً لا يستشهد بشعره فى اللغة فهو من علماء العربية».

معنى غريب القرآن:

القرآن الكريم - وإن نزل بلغة العرب - يحتوى على كلمات تحتاج إلى بيان وإيضاح ، لأنها قد تكون لغة لقبيلة «أو تكون مستعملة على وجه من وجوه الوضع يخرجها مخرج الغريب كالظلم، والكفر ، والإيمان ونحوها مما نقل عن مدلوله فى لغة العرب إلى المعانى الإسلامية المحدثه».

وقد بدأت حركة الكشف عن هذه الكلمات الغامضة على يد رسول الله ﷺ ، فقد سأله أعرابي عن قوله تعالى ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] قائلاً: وأينا لم يظلم نفسه؟ ففسر له النبى عليه الصلاة والسلام الظلم بالشرك واستشهد عليه بقوله تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

ويوضح ابن قتيبة فى كتابه «المسائل» أن «العرب لانتوى فى المعرفة بجميع ما فى القرآن من الغريب والمتشابه بل لبعضها الفضل فى ذلك على بعض، والدليل عليه قول الله عزوجل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] ثم قال: «ويدل عليه قول بعضهم: يارسول الله أنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه، ونحن العرب حقا، فقال: إن ربي علمنى فتعلمت».

وكان الصحابة رضى الله عنهم يسمون هذا الغريب : «إعراب القرآن». ولا يقصدون به معنى: الإعراب النحوى، لأنهم كما يقول الرافعى كانوا: «يستبينون معانيه، ويخلصونها» وقد روى أبو هريرة : «أعربوا القرآن، والتمسوا غرائبه».

وقد لمس هذا المعنى الزمخشري فى كتابه: «أساس البلاغة» فقال: «وتكلم فأغرب إذا جاء بغرائب الكلام ونوادره، وتقول: فلان مغرب كلامه ومغرب فيه، وفى كلامه غرابة، وغرب كلامه، وقد غربت هذه الكلمة أى غمضت فهى غريبة، ومنه قول الأعرابي: ليس هذا بغريب، ولكنكم فى الأدب غرباء».

الشواهد الشعرية والغريب:

مما لاشك فيه أن اهتمام الرواة بالشعر العربي، وجمعه وروايته، وإقامة الدراسات حوله لتقده كان من أجل القرآن الكريم لتفسير غريبه، وتوضيح معانيه. والدليل على هذا قول ابن عباس رضى الله عنهما: «إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب، فإن الشعر ديوان العرب» ولاهتمام العلماء بالقرآن الكريم كان الشافعى الفقيه الكبير يخفظ عشرة آلاف بيت من شعر هذيل بإعرابها، وغريبها ومعانيها.

وحدثوا عن ابن الأنبارى أنه كان يحفظ ثلاثمائة ألف بيت من الشعر من أجل القرآن الكريم.

وقد أشاد الرافعى بهذه العناية الفائقة التى وجهها العلماء إلى الشعر العربى من أجل القرآن الكريم فقال: «توسع أهل اللغة فى شواهد القرآن، ونقبوا عنها... إلى أن يقول: فلا يعرف فى تاريخ العلوم اللسانية قاطبة شواهد تبلغ عدتها أو تقاربها أو تكون منها على نسبة متكافئة، فإن ما أحصوه من شواهد القرآن فيما ذكروا ثلاثمائة ألف بيت من الشعر ولعمر أبيك إنها لمعجزة فى فنها، ولو بلغت الشواهد نصف هذا القدر لكانت المعجزة كاملة».

ويسوق لنا الإمام اليبضاوى فى تفسيره قصة تبين لنا فى وضوح كيف كان يعجز بعض الصحابة عن فهم معانى بعض هذا الغريب، فإذا ما فسر هذا الغريب بشعر قالته العرب استراحت النفس إلى هذا التفسير، وأطمأن القلب ألى هذا البيان . فى قوله تعالى:

﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٧]. يقول البيضاوي: أى على مخافة بأن يهلك الله قوماً قبلهم فيتخوفوا فيأتيهم العذاب وهم متخوفون أو على أن ينقص شيئاً بعد شيء فى أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا، من تخوفته إذا تنقصته.

وهذا التفسير لمعنى التخوف ما كان معروفاً لولا هذه الحادثة التى ساقها البيضاوي عقب تفسيره لهذه الكلمة فقد قال: روى أن عمر رضى الله تعالى عنه قال على المنبر: ما تقولون فيها؟ فسكتوا فقام شيخ من هذيل، فقال: هذه فى لغتنا. التخوف: التنقص، فقال: هل تعرف العرب ذلك فى أشعارها؟ قال نعم. قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته:

تخوف الرحل منها تامكاً قرداً كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر: عليكم بديوانكم لا تضلوا. قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم، ومعانى كلامكم.

ويعرض لهذه الكلمة الغريبة القالى فى كتابه الأمالى مفسراً بعض الكلمات الغامضة فى بيت الاستشهاد فيقول: التامك: المرتفع من السنام. والقرد: المتلبد بعضه على بعض. والسفن: المبرد.

ولم يكتف أبو على القالى بهذا البيت المستشهد به لتوضيح كلمة: «تخوف» بل يشفع ذلك البيت بيت آخر فيقول «وأخبرنى أبو بكر بن الأنبارى عن أبيه قال: أتى أعرابى إلى ابن عباس فقال:

تخوفنى مالى أخ لى ظالم فلا تخذلنى اليوم ياخير من بقي

فقال: تخوفك: أى تنقصك؟ قال: نعم، قال الله أكبر: ﴿يَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾.

وتواجهنا فى آسالى القالى كلمة أخرى غريبة وهى كلمة: «يحص» من قوله تعالى ﴿وَلِيْمَحِصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: ١٤١].

قال أبو على: قرأت على أبى بكر الأنبارى فى قوله عز وجل: ﴿وَلِيْمَحِصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ أقوالاً: قال قوم: يمحصهم: يجردهم من ذنوبهم، واحتجوا بقول أبى دؤاد الأيدى يصف قوائم الفرس.

صم النور صحاح غير عائرة ركبى فى محصاء مللقى العصب

النور : شبه النوى التى تكون فى باطن الحافر . ومحصاء : أراد قوائم منجرداء لىس فىها إلا العصب والجلد والعظم . ومنه قولهم : اللهم محص عنا ذنوبنا . قال : وقال الخليل : معنى قوله عزوجل : وللمحص : وليخلص . وقال أبو عمرو وإسحاق بن نزار الشىبانى : وللمحص : وليكشف واحتج بقول الشاعر :

حتى بدت قمرأوه وتمحصت ظلماؤه ورأى الطريق المبصر

قال : ومعنى قولهم : اللهم محص عنا ذنوبنا أى اكشفها ، وقال آخرون : أطرحتها . وقال أبو على : هذه الأقوال كلها فى المعنى واحد ألا ترى أن التخليص تجريد ، والتجريد كشف ، والكشف طرح لما عليه .

وقد فاضت كتب التراث الإسلامى بهذه الشواهد الشعرية التى خدمت القرآن الكريم فى توضيح غريبه ، وكشف معانيه .

وإلى القارىء نماذج من هذه الشواهد ليدرك مدى ما بذل هؤلاء العلماء من جهد صادق فى مجال القرآن الكريم .

من هذه النماذج :

كلمة (زنىم) من قوله تعالى ﴿عَتَلْ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ [القلم: ١٣] فقد سئل ابن عباس عنها فاستشهد فىها بقوله :

زنىم نداعاه الرجال زيادة كما زىد فى عرض الأديم الأكارع

وعن ابن ملكة قال : سئل ابن عباس عن «الليل وما وسق» فقال : وما جمع ، ألم تسمع قول الشاعر :

إن لنا قلائصاً حقائقا مستوسقات لو يجدن سائقا

وأستلة نافع بن الأزرق لابن عباس حول كلمات من غريب القرآن الكريم مشهورة سجلتها معظم الكتب التي ألفت في الدراسات القرآنية. وكانت إجابة ابن عباس عن هذه الأسئلة بالشعر العربي ليؤكد أن هذه الكلمات ليست غريبة عن اللغة، وإن كان لا يدركها الكثير من العرب.

ومن أسئلة نافع سؤاله عن قوله الله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [المعارج: ٣٧]. قال ابن عباس: حلق الرفاق. قال نافع: وهل تعرف العرب ذلك قال نعم، أما سمعت عبيد ابن الأبرص وهو يقول:

فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا

وسأله عن قوله تعالى: ﴿إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ [الأنعام: ٩٩]: نضجه أما سمعت قول القائل:

إذا ما مشت وسط النساء تأودت كما افتر غصن ناعم النبت يانع

وسأله عن قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] قال: الوسيلة.

الحاجة. أما سمعت قول عترة:

إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلي وتخضي

وسأله عن قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَبْسُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الرعد: ٣١] قال: أفلم يعلم. أما سمعت

قول مالك بن عوف.

لقد يبس الأقوام أنى أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائبا

وسأله عن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَضْحَى﴾ [طه: ١١٩] قال: لاتعرق من شدة حر الشمس،

أما سمعت قول القائل:

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيخصر

الغريب والمجاز:

وإذا تجاوزنا هذا الغريب إلى المعاني والمجاز فإننا نرى كثيرا من الشواهد الشعرية جاءت لتوضح هذه المعاني، وتكشف لنا أسرار هذا المجاز.

ويطالعنا أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي في كتابه: «جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام» بطائفة من الشعر الذي استشهد به في مجالى المعانى والمجاز.

يقول أبو زيد: «وفى القرآن مثل ما فى كلام العرب من اللفظ المختلف ومجاز المعانى فمن ذلك قول امرئ القيس:

قفا فاسألا الأطلال عن أم مالك وهل تخبر الأطلال غير التَهالك

فقد علم أن الأطلال لا تجيب إذا سئلت، وإنما معناه: قفا فاسألا أهل الأطلال، وقال الله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢].

وقال السماخ بن ضرار التغلبي:

أعائش ما لقومك لا أراهم يضيعون الهجان مع المضيع

(لا) هنا زائدة، والمعنى: ما لقومك أراهم. وقال تعالى ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] (لا) هنا زائدة. والمعنى: غير المغضوب عليها والضالين.

قال عمرو بن معد يكرب الزبيدي:

وكل أخ مفارقة أخوه لعمر أيبك إلا الفرقدان

فجعل (إلا) بدلا من الواو، والمعنى: والفرقدان كذلك. وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَائرَ الإثمِ والفَواحشِ إِلاَّ اللّٰمَمَ﴾ [النجم: ٣٢] (إلا) ها هنا بدل من الواو. والمعنى: واللامم. وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمُ يُونُسَ﴾ [يونس: ٩٨].

وقال امرؤ القيس بن حجر:

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى كبرت وألأ يحسن السرَّ أمثالى

السر: النكاح، قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَّا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة: ٢٣٥]

وقال زهير:

ويُنغض لى يوم الفِجار وقد رأى خيولا عليها كالأسود ضوارى

ينغض: يرفع رأسه . قال تعالى: ﴿فَسَيَنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥١] أى يرفعونها ويحركونها بالاستهزاء.

وقال النابغة:

تَلَوْتُ بَعْدَ افْتِضَالِ الْبُرْدِ مِثْرَهَا لَوْتُ عَلَى مِثْلِ دِعْصِ الرَّمْلَةِ الْهَارِي
الهاري: المهتمد من الرمل . قال الله تعالى: ﴿عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩] أى مهتمد.
وقال الأعشى:

كَأَنَّ مَشِيئَتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا مَوْرُ السَّحَابَةِ لَارِثٌ وَلَا عَجَل
وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ [الطور: ٩] والمور: الاستدارة والتحرك.
وقال الأعشى:

أَمْ غَابَ رَبِّكَ فَاغْتَرْتِكَ خِصَاصَةً فَلَعَلَّ رَبِّكَ أَنْ يُؤْوِبَ مُؤِيدَا
الرب: السيد، قال الله تعالى: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠] أى إلى سيدك.
وقال الأعشى:

تَقُولُ بِنْتِي وَقَدْ قَسَرْتِ مَرْتَحَلًا يَارَبِّ جَنْبِ أَبِي الْأَوْصَابِ وَالْوَجَعَا
عليك مثل الذى صليت فاغتمضى نَوْمَا فِإِنْ لَجْنِبِ الْحَيِّ مُضْطَجَعَا
الصلاة ها هنا: الدعاء تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]
وقال الأعشى يذكر النعمان:

وَحَرَّتْ تَمِيمٌ لِأَذْقَانِهَا سَجُودَا لِذِي النَّجَاحِ فِي الْمَعْمَعِ
الأذقان: لوجوه كقوله تعالى: ﴿وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ﴾ [الإسراء: ١٠٩].
وقال لبيد:

وَمَا النَّاسُ إِلَّا عَامِلَانُ فِعَامِلٍ يَتَبَّرُ مَا بَيْنِي وَآخِرِ رَافِعٍ
يتبر: أى ينقص قال الله تعالى: ﴿مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٣٩]

وقال أمية بن أبي الصلت:

وفيها لحم ساهرة وبحرٍ وما فاهوا أبداً مقيمٌ

الساهرة : الفلاة . قال الله عز وجل : ﴿إِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات : ١٤]

وقال أمية بن أبي الصلت:

نفشت فيه عشاءً غنمٌ لرعاءٍ ثم بعد العتمة

النفش : الرعى بالليل . قال الله تعالى : ﴿إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ [الأنبياء : ٧٨] .

وقال أمية بن أبي الصلت:

لقيت المهالك في حربنا وبعد المهالك لاقيت غياً

غى : واد في النار . قال الله تعالى : ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم : ٥٩]

وقال أبو ذؤيب:

إذا سمعته النحل لم يرج لسعها وخالفها في بيت نوبٍ عواسلٌ

لم يرج : لم يخف . وقال الله تعالى : ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح : ١٣] أى لاتخافون .

هذه أمثلة متعددة اقتبستها من كتاب الجمهرة ثبت أن الشواهد الشعرية ضرورة ملحة في توضيح معانى غريب القرآن، وكشف الستار عن مجاز الكلمات القرآنية التي لا تستطيع المعاجم اللغوية أن تفي بإيضاحها، وبيان المقصود بها .

ويعلق صاحب جمهرة أشعار العرب على هذه الشواهد بعد أن ساق هذه الأمثلة الكثيرة بقوله : (والأخبار في هذا لعمرى تطول ، والشواهد تكثر غير أننا اقتصرنا من ذلك على ما حكيناه في كتابنا هذا) .

أول مصنف في غريب القرآن،

لعلنا إذا بحثنا مدققين عن أول مصنف يطالعنا في مضمار غريب القرآن نجد كتاب

«مجاز القرآن» لأبي عبيدة معمر بن المثنى، ذلك لأن السيوطى فى كتابه: «الوسائل فى مسامرة الأوائل» ينصر على أن أول من صنف فى غريب القرآن هو: أبو عبيدة معمر بن المثنى، «لأنه جاء بعد قتادة بن دعامة السدوسى المتوفى ١١٧ هـ وأبى عمرو بن العلاء المتوفى ١٥٤ هـ»، وهما لم يخلفا لنا أثراً مكتوباً وإنما كانت الأخبار تنقل عنهما مشافهة».

وكتاب: مجاز القرآن» لأبى عبيدة وإن كان يحمل اسم المجاز فهو فى حقيقة أمره كتاب يدور حول الغريب من الكلمات القرآنية، وتفسير هذا الغريب بالشعر وكلام العرب.

وقد التبست كلمة «المجاز» هذه على المرحوم الاستاذ عبد العزيز البشرى فقد ذهب إلى أن كتاب (مجاز القرآن) لأبى عبيدة يدور حول بيان الحقيقة من المجاز فى القرآن الكريم.

وقد رد الاستاذ المرحوم أمين الخولى على الاستاذ البشرى هذا الظن وبين «أن الحق الذى قاله القدماء، وتنطق به القطعة المحفوظة بدار الكتب المصرية من كتاب أبى عبيدة نفسه - الحق أن هذا الكتاب فى تفسير القرآن».

وقد استدل أمين الخولى بقول ابن تيمية عنه فى كتاب «الإيمان» إذ يقول: «أول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه، ولكنه لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة، وإنما عنى بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية».

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام أن الزميل المرحوم الدكتور حفى شرف وقع فى هذه الشبهة أيضاً ولم ينتبه إلى أن (المجاز) ليس هو ما يقابل الحقيقة بل ما يعبر به عن الآية أو لتوضيح الغريب وبيانه. قال الدكتور حفى شرف: بصدد الحديث عن صاحب المجاز «كان كل همه معرفة الحقيقة والمجاز للالفاظ القرآنية وقرينها بما جاء مثيلاً لها فى الأدب العربى مما جعل كتابه يعتبر بحق النواة الأولى للبحوث البيانية».

الدافع لتأليف (مجاز القرآن):

ولانسى أن نذكر أن الدافع لتأليف هذا الكتاب سؤال وجه إلى أبى عبيدة فى مجلس الفضل بن الربيع حول غريب آية قرآنية، يحدثنا ذلك ياقوت عن أبى عبيدة فيقول: «ثم

دخل رجل فى زى الكتاب له هيئة، فأجلسه إلى جانبى وقال له: أتعرف هذا؟ قال : هذا أبو عبيدة علامة أهل البصرة أقدمناه لنستفيد من علمه ، فدعا له الرجل ، وقرظه لعقله هذا، وقال لى : إنى كنت إليك مشتاقًا، وقد سألت عن مسألة، افتأذن لى أن أعرفك إياها فقلت: هات. قال : قال الله عزوجل : ﴿ طَلَعَهَا كَأَنَّه رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ [الصفات: ٦٥] وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله، وهذا لم يعرف، فقلت: إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم. أما سمعت قول امرئ القيس:

أبقتلنى والمشرّف مضاجعى ومسنونة زرق كانياب أغوال

وهم لم يرو الغول قط، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به، فاستحسن الفضل ذلك، واستحسنه السائل، وعزمت من ذلك اليوم أن أضع كتابا فى القرآن فى مثل هذا وأشباهه، وما يحتاج إليه من علمه، فلما رجعت إلى البصرة عملت كتابى الذى سميت به «المجاز». وسألت عن الرجل السائل فقيل لى: «هو من كتاب الوزير وجلسائه وهو إبراهيم بن إسماعيل الكاتب».

وبعد هذا الكتاب ظهرت كتب أخرى فى الغريب أهمها كتاب:

تفسير غريب القرآن لابن قتيبة:

وقد بين ابن قتيبة فى مقدمة كتابه أن كتابه: «مستنبط من كتب المفسرين وكتب أصحاب اللغة العالمين، لم نخرج فيه عن مذاهبهم، ولا تكلفنا فى شىء منه بآرائنا غير معانيهم بعد اختيارنا فى الحرف أولى الأقاويل فى اللغة».

ويعيب ابن قتيبة على قوم التمسوا منكر التأويل، ومنحول التفسير، فقد نحل قوم التفاسير المنحولة، والروايات المنكورة، وكان الأحرى بهم أن يعتمدوا على كلام العرب ليكون منارا لهم يهديهم ويرشدهم، لأن القرآن كتاب كريم نزل بلسان عربى مبين.

يقول ابن قتيبة: «ونبذنا منكر التأويل، ومنحول التفسير، فقد نحل قوم ابن عباس أنه قال فى قول الله عز وجل : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير: ١] أنها غورت من قول الناس بالفارسية: كورد بكرد».

وقال آخر فى قوله: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا﴾ [الإنسان: ١٨] أراد سلقى سبيلاً إليها يا محمد.

وقال الآخر فى قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]: إن الإبل: (السحاب).

وقال الآخر فى قوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]: إن الزينة: المشط. ثم يختم ابن قتيبة مقدمته بقوله: «مع أشياء لهذا كثيرة لاندري: أمن جهة المفسرين لها وقع الغلط؟ أم من جهة النقلة».

أمثلة من الشواهد الشعرية فى كتاب (تفسير الغريب):

﴿مَأْوَأَكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ [الحديد: ١٥] أى هى أولى بكم. قال لبيد:

فغدت كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافة خلفها وأمامها

﴿عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ [النبا: ٣٦] أى كثيرا. يقال: أعطيت فلانا عطاء حساباً وأحسبت فلانا أى أكثر له. قال الشاعر:

ونقفى وليد الحى إن كان جائعاً ونَحِسُّبه إن كان ليس بجائع

﴿يَوْمٌ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢] أى عن شدة من الأمر. قال الشاعر:

فى سنة قد كشفتُ عن ساقها حمراء تَبْرِى اللحم عن عرقها

«الجبلية» [الشعراء: ١٨٤] الخلق. يقال: جبل فلان على كذا، وكذا أى خلق.

قال الشاعر:

والموت أعظم حادث مما يمرّ على الجبله

على أن رواة شعر الشواهد فى مجال غريب القرآن ومعانيه لم يأنفوا من الاستشهاد بسفهاء العرب وأجلافهم، ولم يتورعوا عن رواية الأشعار: «التى فيها الخنا والفحش لأنهم يريدون منها الألفاظ، وهى حروف طاهرة» ويروى لنا الرافعى فى هذا الشأن خبرا طريفا يدل

على قدسية الألفاظ وطهارة الكلمات. قال: «روى أبو حاتم عن الجرمي أنه أتاه أبو عبيدة معمر بن المثنى الراوية بشيء من كتابه في تفسير غريب القرآن. قال الجرمي: فقلت له: ممن أخذت هذا يا أبا عبيدة فإن هذا تفسير خلاف تفسير الفقهاء؟ فقال: هذا تفسير الأعراب البوالين على أعقابهم فإن شئت فخذ، وإن شئت فذر».

وقبل أن اختتم الحديث في شواهد غريب القرآن أود أن أشير إلى رأى الدكتور طه حسين فى كتابه: «فى الأدب الجاهلى» حول استدلال ابن عباس على الكلمات القرآنية الغريبة بالشعر العربى، فقد أنكر طه هذه القصة. واعتمد على انكاره هذه القصة بأنها قد وضعت فى تكلف وتصنع لتثبت أن ألفاظ القرآن الكرىم كلها مطابقة للفصحى من لغة العرب، أو أن هذه القصة مدسوسة عليه «فقد كان له مولى وهو «عكرمة» يدس عليه كثيرا من الأخبار».

والحق أنه لا داعى لهذا الإنكار، أو لهذه الاحتمالات والافتراضات فعبد الله بن عباس يعلم أن الشعر ديوان العرب، وهو المصدر الوحيد الذى يلجأ إليه فى تفسير غريب القرآن. وقد قال: «الشعر ديوان العرب فإذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلفظ العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه».

